

الاحتفال الديني واجب حضاري

يجانب الصواب من يعتقد أننا فتحنا أبواب بيوتنا وقلنا تفضل بالدخول يا "بابا نويل"، أو غرسنا بأيدينا "شجرة الكريسماس" في مدننا، أو عرضنا القلوب الحمراء في "فالانتاين" على أرفف محالنا بدافع الكسب والتجارة، بل استطاعت الحضارة الغربية التي نعيش على موائدها؛ تمرير ثقافتها وقيمها ورموزها إلينا وإلى غيرنا في أنحاء المعمورة، إذ لا يمكن أن تدخل مطعماً لتأكل فيه من دون أن تعلق رائحة الطهو والشواء بشبابك. كالحضارة مثل باقة البرامج أو باقة السفر، تأخذها كلها أو تتركها كلها، وهي "حين ترد تأتي بحسناتها وسيئاتها، وليس في الإمكان وضع رقيب على الحدود يختار لنا منها الحسن ويطرد السيئ" كما يصفها عالم الاجتماع علي الوردي، فبينما نحن لا نتصور حياة من دون إنترنت، فمن البلاهة تصور إمكانية أخذ كل ما هو إيجابي من الإنترنت، من دون تحمل سلبياتها. وما دام الحال كذلك، أليس من الحكمة أن نوظف مناسباتنا الدينية لتقليل خسائرنا الحضارية، من خلال الاحتفال بها وتقريبها إلى أطفالنا وتحبيبهم بها، وهي الاحتفالات التي يُنظر إليها دائماً بنظرة فقهية بحتة، بمعنى جواز إقامتها أو عدم جواز ذلك، وبينما نحن منهمكين في هذا الجدال يدخل "بابا نويل" بثيابه الغرائبية ووجهه البشوش إلى بيوتنا.. من الأبواب وليس من المداخل؟! ويكرر المعارضون للاحتفال بالمناسبات الدينية الكلام عن كون الاحتفال بدعة محدثة في الدين، وأعتقد أنه لا يقول بهذا الرأي إلا من يرتدي نظارة فقهية طوال الوقت، ولو نحأها عن وجهه لأبصر الهوية التي تضع، والحضارة التي تذوب، ولانقطع في ذهنه حبل الربط بين الاحتفال وبين تصور أنه يقام بقصد القرية إلى الله تعالى، (وهو تصور معتبر في نظر جمهرة من العلماء عموماً، ولتعمق في الأمر وراه من وجهة أخرى، هي أن الاحتفال مناسبة لتقريب الأطفال والناشئة من رموز حضارتهم، وتحبيبهم إلى مناسباتهم الدينية. وبطبيعة الحال، الطفولة عمر البهجة والغناء واللعب والانبهار بالألوان والأشكال والمجسمات والغرائب، ويصعب شد الطفل بغير تلك الوسائل، فأبي كارثة ستحل بالأمة لو استمع الطفل لضرب الدفوف في رأس السنة الهجرية؟! أو رأى القناديل المضيئة تتدلى في رمضان؟! أو شاهد مجسماً لخروف أبيض في ذي الحجة؟! أو سمع منشداً يشدو بأعذب الكلام في مدح حبيب الرحمن في ربيع الأول؟! أو أدى مع أقرانه الأهازيج في شعبان وهم يحملون أكياس الحلويات؟! ومثلما لا يؤثر اكتشاف الطفل الغربي حين يكبر أن "بابا نويل" شخصية خرافية وأنه لا يهبط من المداخل ولا هم يحزنون، فمن غير المتصور أن تؤثر احتفالاتنا بعقيدة أطفالنا، فيعتقدون مثلاً أن الاحتفال من ضرورات الإسلام، إذ سيدركون بعد حين أنه لم يكن إلا طريقة للمحافظة على هويته، وأسلوباً لشده إلى ما تبقى من حضارة تهوليت هؤلاء الرافضون للاحتفال بالمناسبات الدينية حكوا رؤوسهم قليلاً وابتكروا طريقة نحافظ بها على هوية أطفالنا، طريقة تشد الطفل وليس البالغ الراشد الذي تمسك الفتاوى بخناقها، وتسيل المواعظ الدموع من عينيه، بدلاً من الجلوس وتوزيع الاتهامات، بينما يرون بأعينهم "بابا نويل" في ألعاب "الأيباد" وهو يداعب صغارهم، وقلوب "فالانتاين" تحلق فوق رؤوس صغيراتهم دمننا لا نزرع ما نأكل، ولا ننسج ما نلبس، ولا نخترع ما نستعمل، ولا نصنع ما ندود به عن أوطاننا، فسنبقى نأكل من موائد الآخرين، الجيد من أطباقها والسيئ، وليس من الصواب ألا نستعمل ما بحوزتنا من مضادات تقلل خسائرنا المتزايدة في ميدان الهوية والحضارة.